«حيث تغيب الآلهة تسود الأشباح وتسيطر».

(مقولة لنوفاليس أحد أدباء الرومانسية)

«إن الاعتقاد بضرورة تبنى الشعوب غير الغربية لقيم ولمؤسسات ولحضارة غربية، لهو أمر غير أخلاقى فى نتائجه».

(صامويل هنتنجتون: «الغرب الفريد» ص ٤١)

- ١ -

إذا أراد المرء أن يتنبأ بالتطورات المستقبلية للغرب وللشرق الإسلامى ـ أو أراد على أقل تقدير العوامل التى يتطلبها التطور المرجو ـ فعليه فى بادئ الأمر أن يقوم بعملية حصر لتلك العوامل. عليه أن يبدأ بالسؤال التالى: ماذا يحدث على الجانبين الآن؟.

أعتقد أن أنسب الناس وأقدرهم على الإجابة عن هذا السؤال هم من يتمتعون بتفكير نقدى سليم، وأتيحت لهم الفرصة بأن يعيشوا فى الجانبين. أعتقد أن حكم هؤلاء على الوضع الراهن ورأيهم، لجديران بالإجابة عن سؤالنا.

وإننى إذ أقول ذلك، يخطر فى ذهنى هؤلاء الطلبة الزائرون الذين يعودون إلى بلادهم بعد استكمال دراساتهم فى الغرب (هؤلاء يشاهدون بلادهم بنظرة جديدة)، وهم بطبيعة الحال غير اللاجئين إلى الغرب، سواء لأسباب سياسية أو اقتصادية؛ إذ إن الأخيرين ـ نظرًا لوضعهم ـ لا يملكون إلا إبداء الإعجاب الشديد بالبلد المضيف أو الاعتماد الكلى عليه، وبالتالى أراهم غير قادرين على ممارسة النقد النزيه أو حتى التفكير بشكل نقدى سليم.

ولتحقيق ذلك، سأقوم بخلق شخصيتين من بنات أفكارى لطالبين مسلمين نمطيين يعيشان فى الغرب، وسأقوم بتوجيه الأسئلة إليهما عن هذا الغرب، حتى أصفه من خلال عيونهما. أما فى الفصل التالى، فسأقوم بهذه التجربة مع طالبين أوروبيين ـ هما أيضًا من خيالى ـ اعتنقا الإسلام، فأسألهما، عن انطباعاتهما عن العالم الإسلامى. إحدى الشخصيتين اختارت

هذا العالم وطنًا لها، أما الأخرى فلا ترى داعيًا لهجرة وطنها الأصلى، ومن خلال هذه التجربة سنشاهد هذا العالم ـ العالم الإسلامى ـ من خلال عيون غريبة عنه.

ـ ٢ ـ

ينتمى الطالب الأول الذى نستمع إليه، إلى ما يمكن أن نسميه بالإسلام الإسمى، فهو مسلم بالميلاد والجذور والبيئة، أكثر منه مسلمًا بالممارسة، هذا الطالب طالما حلم بالغرب قبل أن تطأه قدماه. منذ طفولته كان الغرب بتقدمه مثالًا له (كان منذ طفولته يضع تقدميته كمثال يجب الوصول إليه حتى فى فسادها الماركسى).

فلا غرابة إذًا فى أن يحاول تشرُّب هذه الحضارة الغربية التى طالما عشقها، حتى إنك لا تميزه عن محيطه الغربى الذى يعيش فيه.

إننى لأتحدث عن تجربة وخبرة؛ حيث إننى انتقلت عام ١٩٥٠ وعمرى آنذاك ١٩ عامًا من ألمانيا المُقَسّمة، المهزومة، المحتلة، والمنكسرة إلى «يونيون كوليج ـ Union College» فى نيويورك، فى قلب جنة ما بعد الحرب العالمية الثانية، أمريكا فى قمة ازدهارها.

لقد كان تأثير أمريكا منذ زمن ـ والآن الغرب بأكمله ـ على المهاجرين من الشباب أشبه بتأثير المخدرات التى تصور لهم حياة كاملة أفضل. فالكل يتخيل إمكانية تحقيق أى شىء وكل شىء هنا، هنا فى هذا العالم؛ حيث يجد النشطاء والمثابرون الفرص العظيمة بمنتهى السهولة، حتى يخيل لهم أنها ملقاة فى الشارع ليلتقطوها.

أما أسباب هذا التصور، فواضحة. فالغرب متقدم تكنولوجيًّا بدرجة عالية جدًّا. الغرب يعيش بعد اختراعات القرن العشرين ثورته التكنولوجية الثالثة؛ التى تقلب صناعة المعلومات رأسًا على عقب.

فالعالم لم يعد هو العالم نفسه منذ اختراع الإنترنت.

أعتقد أن وصف الطالب المسلم ـ بالميلاد ـ للغرب الذى يكن له تقديرًا كبيرًا سيكون كالتالى:

كل ما يتعلق بالتكنولوجيا ـ بما فى ذلك الطب والبيروقراطية ـ يسير على أكمل وجه. تسود الكفاءة كل المجالات، مثل الاقتصاد والإدارة والصحة والتعليم وغيرها. يلتزم غالبية

المواطنين بالقوانين، ويطبق الدستور بشكل روتينى فى الدولة. فدولة الدستور حقيقة وواقع مطمئن. والحديث عن الرشا قليل جدًّا، والقوات المسلحة تدين بالولاء التام للحكومة المدنية المنتخَبة، ولا يتعرض أتباع الأديان والمعتقدات المختلفة للسجن أو التعذيب. والدولة تتحمل مسئولية مواطنيها من المهد إلى اللحد. كما تتحمل الدولة مسئوليتها فى المحافظة على البيئة. ونادرًا ما ينقطع التيار الكهربائى أو المياه أو التدفئة. (عند هذه النقطة من وصف الغرب، يرغب المرء ـ بوصفه مواطنًا يعيش فيه ـ فى التوقف؛ حيث يشعر بملل شديد. أما بالنسبة لمواطن من العالم الثالث، فما ذكر ليس من التفاهات بشىء، بل كلها إنجازات يحسد الغرب عليها). فالفرد يتمتع بموقع المركز، سواء فى الدولة أو المجتمع أو الاقتصاد بسوقه المشبع حتى التخمة. هذا الفرد يتمتع بأقصى حماية من قبل الشرطة والقضاء، ضد أى ظلم يقع عليه أو تعسف ضده. كما يقوم الأفراد باختيار حكوماتهم بحرية تامة. العملة ثابتة، وكل ما يقوم بشرائه من منتجات وأدوية سليمة وغير مغشوشة، فهناك رقابة صارمة على الجودة. وهنا فى الغرب لا يجد العاطل عن العمل نفسه مضطرًّا إلى مد يده ليتسول. حتى الاضطرابات العمالية لا تتدخل الشرطة لإنهائها!

الفكرة والقيمة السائدة هى الحرية والتحرر. التحرر من الظلم والقهر والخوف والجوع والندرة والرقابة واللوائح، وحتى الحياء. هنا تسود حرية إبداء الرأى، وحرية التجمع وحرية الاعتقاد، وحرية اختيار مكان الإقامة، وحرية أداء الخدمة العسكرية. ومن خلال ملاحظاتنا لسوق العمل ـ وكذلك ملابسها ـ يتبين لنا أن كافة العوائق قد زالت تمامًا من طريق المرأة لتحقيق ذاتها. فالتحرر الجنسى أصبح ـ حقيقة ملموسة ـ لقد تحررت المرأة تمامًا، والقانون والمبدأ السائدان بين الجنسين هو: ما يهواه المرء مسموح به. ويتضمن هذا بطبيعة الحال الاعتراف بحياة الشواذ حياة مقبولة ومتساوية مع غيرها. لم يصبح الشواذ فى حاجة إلى التستر أو الاختفاء، بل بالعكس يمكنهم اليوم إنشاء تنظيم خاص بهم.

مجمل القول: ينظر طالبنا المسلم المندمج فى الغرب إلى هذا العالم نظرة شديدة الإيجابية؛ حيث يراه أقصى ما بلغته الحضارة الإنسانية من مراحل وأزهاها، وبالتالى يحق للغرب وحضارته أن يسودا العالم.

- ٣ -

نجد فى مقابل هذا الطالب فى الغرب نوعية أخرى من الطلبة الذين يلتزمون الإسلام ويرفضون الغرب المذكور سابقًا ـ رغم مميزاته ـ جملة وتفصيلًا، بل إنهم يلعنونه بشكل مطلق، حتى إن المرء كثيرًا ما يتساءل: لمَ لا يعودون إلى أوطانهم ليتركوا «الشيطان الأكبر» الذى يكرهونه لحاله؟.

ونحن نريد الآن أن نتتبع مسار تفكير أحد هؤلاء الطلبة، وهو بطبيعة الحال شخصية متخيَّلة وليست حقيقية. إنه يسوق مسوِّغات منطقية وحججًا قوية لحكمه السلبى على الغرب، شأنه شأن زميله المغرم بالغرب.

يبدأ هذا الطالب أول ما يبدأ بتوجيه نقده إلى النزعة العقلانية الغربية، والتى يرجع إليها الفضل فى ظهور ما يسمى بـ «مشروع الحداثة»؛ منذ القرن الثامن عشر.

فالتاريخ الحقيقى والفعلى للغرب منذ عصر التنوير، لم يكن تحقيقًا للعقل بقدر ما كان سلسلة متتالية من الفظائع والأعمال غير الإنسانية، مثل: عمالة الأطفال، تحويل قطاعات ضخمة من المزارعين إلى عمال فى قطاع الصناعة وما ترتب على ذلك من أضرار للأراضى الزراعية، تجارة العبيد والتفرقة العنصرية، استعمار العالم، إشعال حربين عالميتين مدمرتين(*)، استخدام أسلحة كيميائية ونووية، إرهاب تمارسه الدولة تحت شعارات أيديولوچية كالبولشفية، وكذلك نزعات كالشوفونية الفاشية، وليس آخر هذه الفظائع عمليات التطهير العرقى فى وسط أوروبا كما هو الحال فى كرواتيا والبوسنه وصربيا.

لا نستطيع أن ننفى عن آباء التنوير المسئولية غير المباشرة عن هذا الفشل الفريد لفكرة عظيمة، هى سيطرة العقل على أفراد مستقلين وعلى تصرفاتهم. فمفكرون من أمثال داڤيد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦)، وڤولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨)، وفريدريك الكبير (١٧١٢ ـ ١٧٨٦)، وليسينج (١٧٢٩ ـ ١٧٨١)، وجوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢)، ومن قبلهم مونتانى (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢)، وديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) ولوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤)، وكذلك ليبنتس (١٦٤٦ ـ ١٧١٦)، هؤلاء جميعًا لم يكونوا ملحدين ناكرين لوجود إله، ولكنهم كانوا مؤمنين بإله كعلة أولى، ناكرين للوحى الكنسى، مؤمنين بإله واحد بعيد وليس بصورة الثالوث الإلهى الذى تتبناه الكنيسة المسيحية. اعتمد إيمانهم على ملاحظة الطبيعة وتأملها والتفكير فيها، وليس

(*) ويحق لنا أن نضيف هنا: صناعة إسرائيل والانحياز الكامل لها، وانتهاك كل القيم الإنسانية فى سبيل ذلك ـ (المترجم).

على التسليم بالوحى الكنسى. لم يرغب هؤلاء فى إلغاء فكرة العقيدة أو الديانة ولكن اتجهت جهودهم إلى القضاء على سيطرة الكنيسة على معتقدات البشر وعلى نفوذ الكهنوت.

ولقد استغل بعض التنويريين الإسلام (كعملية التفاف) للإسراع بعملية التحرر من نير الكنيسة. لقد حقق ليسينج هذا بشكل مناسب من خلال مسرحيته «ناثان الحكيم» التى كتبها عام ١٧٧٩ وأبرز فيها مثالية وإيجابية المسلم.

أما ڤولتير، فقام بمحاولة سابقة ـ غير لائقة ـ حيث قام فى عام ١٧٤٢ بكتابة مسرحية «ماهومت النبى الكاذب». لقد أراد من خلال عمله نقد الكنيسة من خلال هجومه على الإسلام[١]. ولقد كافأه فريدريك الأكبر على عمله هذا بمنحه وسامًا.

أما بالنسبة لأعمال كَانْت النقدية، فلم تكن ضد الدين بقدر ما كانت موجهة ضد الكنيسة، فلم يدلل كَانْت ـ ولم يرغب أصلًا فى التدليل ـ على عدم وجود الله فى عمله «نقد العقل» (١٧٨١)، ولكن أراد نفى إمكانية الاعتماد على تصورات ميتافيزيقية تتعدى نقد المعرفة، وبالتالى، تتحول حتمًا إلى لعب بالألفاظ كما كان سيقول ڤيتجنشتين. لقد لجأ كَانْت فى عمله التالى عام ١٧٨٨، «نقد العقل العملى» إلى أن الفرضية المسلَّمة «الله» ضرورة لمسيرة المجتمع. ولكن بالرغم من ذلك، أدى التحرر من سيطرة الكنيسة على البشر كنتيجة لعملية التنوير، إلى تهميش دور الدين. لقد احتل الإنسان الفرد مكانة الله، بحُسبان أنه هو ـ الإنسان الفرد ـ مقياس ومعيار كل شىء. لقد تمادى الإنسان فى تقدير ذاته وقدراته حتى أصبح الوثن الجديد لهذا العصر.

لم يكن فى مقدور غالبية الناس التعايش مع ما يمثله كَانْت من موقف اللاأدرية إزاء المعرفة واللا معرفة، بمعنى أن يتأرجح ما يتعلق بالموقف الفلسفى والدينى، أى أن يحيا وكأن الله موجود دون أن يملك دليلًا علميًّا على هذا الوجود؛ ولذا كان الفرد العادى فى القرن الثامن عشر يميل إلى الأخذ بفرضية باسكال (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢): إذا ما أخذ المرء بمبدأ الإيمان بالله،

(١) لقد قام القيصر فريدريك هذا بالتفاوض عام ١٧٧٥ مع ألف «عائلة محمدية» ليستوطنوا پروسيا الغربية، ويقيم لهم فيها بيوتًا وينشئ لهم بها المساجد (جاء هذا فى خطابه إلى ڤولتير فى ١٣ أغسطس). كان فريدريك يعى تمامًا أن صديقه ڤولتير لا يعرف عن محمد أكثر من معرفته عن إمبراطور الصين (خطاب ١٠/ ١/ ١٧٧٦). اعترف ڤولتير فى خطابه إلى فريدريك أن «محمد لم يأت بفعل الخيانة الذى يستخدمه ڤولتير موضوعًا لهذه المسرحية»، ويعتذر عن جهله بالتاريخ وعبثه به بمقولة يشيب لها الولدان: «من يجرؤ على إشعال حرب فى بلده باسم الله»!، فى الخطابات المتبادلة بين ڤولتير وفريدريك. Verlag Zurich, 1992.

فإنه إذا تبين أن ذلك حق، فاز حينئذ بكل شيء، وإذا تبين خلافه فإنه لن يخسر شيئًا. ولكن كان من البديهى، بل من الضرورى، أن يؤدى القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر، قرن الإلحاد، وممثليه الأساسيين: لودڤيج فويرباخ (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢)، وشارلز داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢)، وكارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣)، وسيجموند فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩).

وفى اللحظة التى أصبح فيها الله مجرد إسقاط لرغبات البشر، أصبح المجال مهيأ لتأليه الإنسان فى صوره المختلفة، سواء كان ذلك بتأليه الجماعة فى الدولة (الماركسية، الاشتراكية، الفاشية)، أو تأليه الفرد (الفردية، الليبرالية، الرأسمالية، النزعة النفسية).

ولذا، أمكن لفردريش نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) أن يعلن موت الله[٢]، واختفاء صورة الإله كما وردت فى المسيحية. وبهذا الإعلان مهد نيتشه للقرن العشرين المثقل بالأيديولوچيات الكثيرة المختلفة وبصراعاتها.

لقد أيقن من منطلق خبراته الخاصة ما عرفه المسلمون من قبل، وهو أن اقتصار الدين على المجال الخاص للشخص، هو أولى الخطوات للقضاء عليه والتخلص منه.

منذ تلك اللحظة عاشت الإنسانية ما لم تره من قبل وما لا مثيل له: فالحضارة الغربية هى الحضارة الأولى من نوعها التى تظن أن بإمكانها الحياة بدون الإيمان بما هو مقدس، بدون إله وبدون غيبيات، وذلك عن طريق سلوكيات تتسم بالإلحاد، حتى وإن لم تؤمن نظريًا بالإلحاد.

تحول الإلحاد فى المعسكر الاشتراكى إلى البديل الدينى، خاصة فى كلٍّ من ألبانيا والصين الماوية.

أما فى ألمانيا الديمقراطية، فلقد أثبتت إحصاءات أجريت بعد ١٠ سنوات من زوال الحكم الشيوعى عنها أن النجاح لم يحالف النظام إلا من خلال محاولته فرض العقيدة الشيوعية وتعليم الإلحاد فى المناهج الدراسية. وخير دليل على ذلك طقوس الشباب، فطبقًا لها كان كلّ من يؤمن بالله يوصم بالخروج عن المجتمع، بل يُعَدّ من المهمشين[٣].

أما اليوم، فالإحصاءات تعطى صورة عن إيمان الشعب الألمانى، كما يلى: يَعُدُّ ٤٧٪ من الألمان أنفسهم لا دينيين، و ٩٪ يسمون أنفسهم ملحدين، ويرتفع هذا الرقم إلى ١٨٪ فى ألمانيا

(٢) لقد أثبت نيتشه فى كتابه الأول: «Die Fröhliche Wissenschaft» أن أهم وأعظم الأحداث هو أن الله قد مات، أى أن الإيمان بإله المسيحية أصبح غير مقبول، وقد أخذ يلقى بظلاله على أوروبا. انظر Nietzxbe الجزء الأول ص ٤٨٩.

(٣) لن تجد اختلافات بين استبيانات الناس فى ألمانيا الغربية والشرقية إلا فى مجال الدين. انظر: FAZ ٢٢/ ٤/ ١٩٩٨، و٢٤/ ١١/ ١٩٩٨.

الشرقية سابقًا. أما بالنسبة لمن يَعُدُّون أنفسهم مؤمنين، فيذهب ٩٪ منهم بانتظام إلى قداس الأحد، ولا ينبغى أن نعجب إذا وجدنا ٣٢٪ من البروتستانت الألمان يؤمنون بـ «قوة عليا»، بينما ٣١٪ منهم يؤمنون بإله الكنيسة.

إنهم بإيمانهم هذا إنما يتخلون ويبتعدون، بدون وعى، عن صورة إله الوحى، ويتجهون بتقديسهم، أيضًا بلا وعى، إلى الصورة الفلسفية لإله الطبيعة، وهى صورة تبناها من قبل مفكرون يونانيون سبقوا ظهور الديانة المسيحية. وهذا المنطق يفسر خروج الآلاف من المسيحيين من الإيمان الكنسى، فلقد فقدت الكنيسة الكاثوليكية فى ألمانيا عام ١٩٩٧ وحده ١٢٤ ألفًا من أعضائها. وهذا التطور يعود إلى ما يدور فى عقول الناس من تفكير، أكثر مما يعود إلى ضريبة الكنائس المالية.

وإذا كانت الإحصاءات قد بينت فى عام ١٩٩٦ أن ٣٩٪ فقط من الألمان ينتمون إلى الكنيسة الإنجيلية، و٣٣٪ إلى الكنيسة الكاثوليكية، فإن ذلك يعنى بطبيعة الحال أن ربع تعداد السكان الألمان بلا مذهب دينى، ومن ضمنهم الملحدون.

وتُعَدُّ بعض الطرق السوقية والفجة لنشر نظريات علمية، عاملًا أساسيًّا فى هذا التطور. فنظرية داروين ـ على سبيل المثال، ـ تجعل البعض يؤمن بأن كل شىء ما هو إلا نتيجة لسلسلة من التطورات تقع بمحض الصدفة، والتى يمكن إعادتها بطريقة عكسية «reverse engineering». واستنادًا إلى نظرية النسبية لأينشتين، يعتقد البعض أنه لا يمكن الثقة بأى شىء. قال ستيفن هاوكنج إنه لا أهمية لوجود الله لتفسير بدء الخليقة؛ حيث يُستبدل بذلك الـ «Big Bang». أما الوصول إلى سر الحياة والروح والوعى، فهو مسألة وقت لا غير، كما يراها رجل الشارع العادى، وستتكفل الكيمياء الحيوية وعلوم الكمبيوتر بحل هذه الألغاز.

ولا يختلف إنسان العصر الحديث ـ إنسان القرن الحادى والعشرين ـ كثيرًا عن سلفه ـ إنسان القرن التاسع عشر ـ فهو كسلفه ـ وإن اختلفت حداثة وتطورات الشعارات العلمية ـ يرى ويتوقع أن يفسر الوعى من خلال معطيات مادية، وأن يتوصل إلى صيغة للعالم على أساس ميكروفيزيقى، بمقتضاها يمكن تفسير كلِّ وجود العالم من خلال حجر بناء أساسى دون الحاجة إلى اللجوء إلى تفسيرات فلسفية.

وتتمثل أعراض هذه الحالة فى عملية الاستبعاد لكلِّ ما هو دينى من المجال العام. هذا لا يدل فقط على تحول أوروبا الغربية عن المسيحية، ولكنه يدل على ما هو أعظم أثرًا من ذلك، وهو تسلل ودخول نزعة مادية فظة إلى فكر ووجدان الكثير من الناس فى الغرب. هذا الإنكار

لله الذى يعيشه الغرب، هو عدم مبالاة بأمور الآخرة أكثر منه إلحادًا، وتأليه الإنسان، سيكون لهما على المدى الطويل آثار وخيمة العاقبة، بل سيجلبان الخراب بعينه، وإن طال الأمد.

يعرب عن هذا الرأى أوتو ڤون هابسبرج؛ إذ يقول: «إن أوروبا بلا مسيحية كبيت من الورق لا بد وأن يهوى»(٤).

ومن قبله توصل جلبرت سيسترتون فى «الهراطقة ـ Heretics» إلى حكم مفاده: إذا ماوصل المرء بتفكيره إلى ما ستكون عليه الحداثة، فإنه سيراها تقود إلى الجنون بعينه. ولكن هذا لن يقع بسرعة، فالمجتمع الذى أصابه الإلحاد سيستفيد لفترة من القيم المتوارثة والسلوكيات التى تمرس الإنسان عليها، وكذلك بعض المعتقدات التى تمتزج فيها الخرافة مع معتقدات جوته، ولكن سرعان ما ينتهى هذا الرصيد. فسرعان ما يبدأ البشر فى البحث عن اللذة، ومحاولة الحصول على كلِّ ما يمكن من ملذات الحياة فى عمره المحدود، ويتزايد ـ بالطبع ـ إهمالهم للصالح العام وللعائلة. ويمكن للمرء أن يتعلم كيفية التمتع بالحياة فى معاهد «البحث عن السعادة». هذه الظاهرة ـ على ما أعتقد ـ أبلغ من أى قول عن العقلية الحاكمة لزماننا هذا، حتى أصبح الإعلاء من شأن الغرق فى الملذات، وإعطاء الأولوية لمتع الدنيا، كأنه الديانة غير الرسمية للدولة. عندما نصل إلى هذه النقطة ـ وقد وصلت إليها أجزاء كبيرة من العالم الغربى ـ تنهار الأسرة، البناء الأساسى والأول للمجتمع، وأعراض هذا الانهيار مخيفة. ففى الولايات المتحدة الأمريكية، نجد أن ١٥٪ فقط من الزيجات الحديثة يتوقع لها ـ إحصائيًا ـ الاستمرار.

هناك الملايين من الأمهات اللاتى يتحملن بمفردهن تنشئة الأطفال بسبب غياب الأب، وهذا يؤدى إلى الكثير من الأطفال المضطربين. ولا يعانى هؤلاء الأطفال وحدهم من عدم رؤيتهم لآبائهم (إذا ما وجدوا أصلًا) فى عطلات نهاية الأسبوع، ولكن كذلك يعانى أطفال الأسر التى يعمل بها كلا الأبوين.

فهؤلاء الآباء والأمهات إنما يحاولون تبرئة ضمائرهم من تهمة إهمال أطفالهم بإغداق المزيد من المتع المادية عليهم، كاللعب، وهذه واحدة من صور الرشوة «لشراء» حب أطفالهم، وهم بذلك إنما يربون مبتزين صغارًا، وجيلًا جديدًا من المستهلكين الشرهين (جيلًا جديدًا ضحية للنزعة الاستهلاكية). ويتولى عن هؤلاء الآباء «مجموعات الأصدقاء» مسئولية التنشئة الاجتماعية للأبناء. هذه المجموعات تضم فى معظمها أحداثًا، تحولوا إلى تجار مخدرات، ونشئًا ينبئ عن مجرمين عتاة مستقبلًا.

---

(٤) Paneuropa, Otto von Habsburg رقم ٤/ ١٩٩١، ص ٦.

لقد فقد الأطفال الأمريكيون منذ الستينيات ١٢ ساعة أسبوعيًّا كان بإمكانهم أن يقضوها من قبل مع ذويهم. وفى الوقت نفسه، تباعد الأجداد الأمريكيون عن حَفَدتهم. وفى الفترة الزمنية نفسها، تضاعفت معدلات الانتحار بين المراهقين، وسجلت معدلات أعمال عنف الشباب زيادة بلغت أربعة أضعاف. وما كان للعنف الذى يبثه التليفزيون، وألعاب الڤيديو التى تروج للعنف كحل لكل المشكلات، وتحول الجنس إلى بضاعة فى متناول الأطفال، ما كان لكل هذا أن يكون له هذا التأثير المفزع إذا ما أتيحت لهؤلاء الأطفال ـ الذين يلتصقون بشاشات التليفزيون ـ فرصة مشاهدة ما يذاع مع ذويهم ومناقشة كل ما يرونه مع آبائهم، ولكن الآباء بالطبع غائبون، وهكذا يتخطى الأطفال المحرومون من العاطفة والمشاعر الأبوية، دون وعى بذلك، الحدود الفاصلة بين العالم الخيالى والعالم الحقيقى.

ويترتب على شعور الأطفال بعدم الانتماء داخل الأسرة المفككة، وشعورهم بأنهم غير مرغوب فيهم، زيادة أعداد الأطفال الذين يعانون من الاكتئاب، حتى أصبح ٥٥٪ من المراهقين الأمريكيين من المدخنين، وهم يلجئون إلى التدخين للتغلب على الضغوط العصبية أسوة بالبالغين.

ويرى المراهق من خلال وسائل الإعلام قبل بلوغه سن الرشد ١٥ ألف جريمة قتل واغتصاب واعتداء بالضرب، وهذا ليس مستغربًا إذا ما علمنا أن هذا المراهق الحديث ما هو إلا رفيق الشاشة الصغيرة، يقضى حوالى ٣٠ ساعة أسبوعيًّا فى متابعة التليفزيون وألعاب الكمپيوتر. عنف يولد عنف. والمدهش فى أعمال العنف ـ كالتى وقعت فى مدرسة ثانوية فى دنڤر عام ١٩٩٩ ـ أن هناك من لا يزال يتعجب من وقوع مثل هذه الأعمال(*).

ويؤدى الميل إلى تناول الخمور دورًا أساسيًّا فى مثل هذه الأعمال، هذا الميل الراسخ فى أعماق الحضارة الغربية. فلقد خبرت بنفسى وأنا طالب فى يونيون كوليج عام ١٩٥٠، أنهم لا يتناولون الخمر للاسترخاء والتمتع بصحبة جيدة مثلًا، بل إنهم يشربون حتى الثمالة ليفقدوا وعيهم. وهذا الميل يبدأ فى أمريكا منذ سن مبكرة، سن الدراسة الثانوية.

كان وأد البنات حديثى الولادة فى بلاد العرب قبل الإسلام لظروف اقتصادية صعبة، أو خوفًا من العار، قبل أن ينهى القرآن عن هذه الجريمة المشينة، أما اليوم، فيتم تحديد نوع الجنين من خلال كشف مبكر بالموجات فوق الصوتية، وبناء على ذلك يتم انتقاء نوع الجنين

(*) هل ثقافة العنف التى ينشرها التليفزيون والسينما مطلوبة لجعل الشعب الأمريكى محصنًا من رفض العنف الذى يمارسه الجيش الأمريكى فى العالم، إن لم يكن لتهيئته لإمداد ذلك الجيش بأفراده؟ ـ (المترجم).

والتخلص من غير المرغوب فيه، ويتم من خلال هذه العملية التخلص من ملايين الأطفال قبل أن يولدوا. ففى مدينة برلين وحدها، لا يرى إلا ثانى طفل نور الحياة. ولكن هذا لا يتم بسبب ظروف اقتصادية، فغالبية النساء الشابات يعتقدن أنهن وحدهن يملكن الحق فى التصرف فى «أرحامهن» حتى وإن ارتبط هذا بقتل طفل لم يولد بعد.

وبناءً على قرار خاص بالموت السريع، يتم تفتيت أجنة فى مراحل متأخرة من النمو، ويتم القضاء على أطفال قادرين على الحياة. سابقًا، كان القضاء على أناس غير قادرين على الحياة بشكل طبيعى، يُعَدُّ من قبيل الأعمال النازية.

و يُعَدُّ التحول فى موقف الرأى العام من الشذوذ الجنسى أحد الأعراض المميزة للتوحش والعبث الجنسى[٥] الذى أحدثته «الثورة الجنسية». كان الطب النفسى حتى فترة طويلة عقب الحرب العالمية الثانية يَعُدُّ الشذوذ الجنسى أحد أشكال الفساد الجنسى وإحدى صور انحطاطه الواضحة. أما فى عام ١٩٧٢، فقد حدث التحول حين صنف المعجم الأمريكى لتوصيف الأمراض النفسية الشذوذ الجنسى مرضًا نفسيًا، ولكن سرعان ما ظهر الشذوذ الجنسى أسلوبًا للحياة، وانتفت عنه صفة المرض النفسى فى الطبعة اللاحقة للمعجم. فالشذوذ الجنسى ـ طبقًا لذلك ـ ما هو إلا توجه معين فى الحياة، وممارسة لاحتمال قائم، أى أنه ظاهرة طبيعية لا يجب إخضاعها للعلاج النفسى.

وبناءً على هذه المعطيات كان من الضرورى إخفاء أدلة علمية قوية على حقيقة ارتباط نشأة ڤيروس فقدان المناعة (الإيدز) بالشذوذ الجنسى بين الرجال وما يرتبط به من عوامل اكتئاب. كما تمت محاولات لإخفاء حقيقة ارتباط هذا الڤيروس بعوامل أخرى ذات تأثير سلبى على جهاز المناعة كالخمر والمخدرات[٦].

كان يجب توجيه النظر بعيدًا عن الأسباب المؤدية لظهور مرض الإيدز والكامنة، بل والمستوطنة، فى المجتمع الأمريكى، ولزامًا كان يجب إخفاء نشأة مرض الإيدز فى مجتمع سان فرانسيسكو، وإلقاء المسئولية بعيدًا، ولن تجد أبعد من أحراش إفريقيا والقرود الخضر لتحمل هذه المسئولية عنهم.

ولقد أدى هذا إلى أن يتعرض الزواج كمؤسسة إلى خطر داهم. إن إقبال الشواذ من

(٥) «الغابة الجنسية ـ Sexual Wilderness» فانس بكارد.

(٦) انظر مالك بدرى (١٩٩٧) وجاود جميل.

الجنسين، رجالًا ونساءً، على عقد زيجات بين أفراد الجنس الواحد، لهو أمر غريب وموضع للتساؤل.

تتعدد صور النهم الشديد لإشباع الملذات الجنسية كافة، فتظهر فى الصور الإباحية بجميع أشكالها وجميع وسائل نشرها، وكذلك النزعات السادية والماسوشستية، وصور تبادل الأزواج والزوجات، والتحرش الجنسى، بل والاستغلال الجنسى للأطفال. وتدل هذه الصور كافة على أن الغرب يحتفل بآخر انتصاراته لنزع عوامل الكبت البشرى!.

الحقيقة التى لا يمكن إنكارها، هى أن المجتمع الغربى أصبح فى بنائه مجتمعًا مدمنًا أيًا كانت الصورة التى يظهر عليها هذا الإدمان: خمر، نيكوتين، ماريجوانا، كوكايين، هيروين، تليفزيون، ألعاب الكمبيوتر أو الإنترنت.

تناول المخدرات والتعود عليها، يؤدى دائمًا إلى المزيد من الإدمان. كذلك الحال فى الممارسة الجنسية؛ حيث يدفع التعود إلى مزيد من درجات التحرر لا يستطيع المرء معه أن يتخيل إلى أين سيمضى به هذا الانحلال بشكله الواسع هذا! وليس من العجب أن يغتال كلُّ هذا الفساد كرامة المرأة، وإحدى الصور الواضحة لذلك هى مسابقات الجمال.

يشعر الإنسان فى الغرب بمزيد من الوحدة والفراغ رغم التقدم الهائل فى مجال وسائل الاتصالات، وما نجم عنها من تضخم فى المعلومات، حتى إن البعض يسميه «تخمة معلومات».

وعد كتاب شارلز رايش ـ الذى حقق أعلى المبيعات عام ١٩٧٠ ـ «اخضرار أمريكا ـ The Greening of America» «المهزومين» بازدهار فكرى وروحى لأمريكا بعد حرب ڤيتنام[٧]. أما ما عرفته أمريكا وخبرته فهو على النقيض: برودة شديدة جمدت العلاقات الإنسانية، ونزعة عنف لم يسبق لها مثيل.

ومن المظاهر التى تبعث على القلق، هذه الوحدة التى تُفرض على كبار السن، هؤلاء العجزة الذين يتم ترحيلهم إلى دور رعاية المسنين. من أسباب هذه الظاهرة أن هناك أعداد غفيرة من الشباب ذوى الطموح إلى درجة الهوس بأعمالهم، والمتطلعين فقط إلى تسلق سلم

(٧) كان كتاب رايش أكثر من تحليل. لقد كان بمثابة إعلان، مانيفستو، أصاب به عصب جيله وإحساسهم ورؤيتهم للحياة.

النجاح المهنى (يطلق عليهم: متسلقو الأهرام ـ Pyramid Climbers)[٨]. يتنقلون من مكان إلى آخر وفق انتقالهم من وظيفة إلى وظيفة[٩]، ويؤدى هذا إلى تفكك الروابط الأسرية.

ويمكن إرجاع أسباب الوحشة كذلك إلى تقلص عدد الأسرة الحديثة إلى ثلاثة أفراد بحد أقصى، وليس ذلك فحسب، بل هناك فراغ هائل يفرض على الإنسان الغربى، حتى إنه يصير عضوًا فى «جماعة وحيدة»[١٠]. هذا العضو يجد نفسه وحيدًا أمام عجلة قيادته برغم الزحام الذى يحيط به، وكذلك يجد نفسه وحيدًا أمام جهاز الكمبيوتر الخاص به.

وكان من الممكن أن تؤدى الكنيسة دورًا فعّالًا فى هذه الفوضى الأخلاقية، إلا أن هناك جموعًا من المؤمنين تفر فرارًا من الكنيسة كلما حاولت هذه إظهار عملية تحديث لها[١١]. فالكنيسة تفقد الكثير من أهميتها حينما تغير جلدها، وتتحول إلى مؤسسة اجتماعية تنافس غيرها من المؤسسات العلمانية والدنيوية. فلقد حدث فى منطقة «أوبر بايرن ـ Oberbayern» بألمانيا أن أعلنت راهبة تابعة للكنيسة عدم إيمانها بحياة أخرى بعد الموت. كما قام بعض أساتذة اللاهوت بتحويل يسوع إلى مصلح اجتماعى فقط، وفى ظل مثل هذه الوقائع، يترك الكثير من المسيحيين المؤمنين الكنيسة، ليس إلى دين آخر، ولكن لينضموا إلى البحر الهائل من المتشككين[١٢].

نستطيع ـ إذًا ـ أن نقول إن الخبرة الأساسية التى عاشتها الحداثة هى الفشل، وكان لا بد لمشروع الحداثة أن يفشل؛ لأنه يرتكز على خطأ فى التصميم، أى البناء الفكرى.

يمكننا أن نلاحظ أن المسلم الذى يتناول الأمور بعين ناقدة لم يتطرق فى نقده إلى نظام الدولة والاقتصاد. وإذا ما تحدثنا إليه فى ذلك يأخذ فى الهمهمة بأن العهد بحرية الإنسان ليس بعيدًا، كما أن الدولة تنتهج منهجًا قصير النظر حيال قيم المسلمين وتراثهم. أما بالنسبة للصحافة، فإنها وإن لم تكن تخضع لرقابة حكومية إلا أنها تخضع لرقابة أخرى، تحكمها المحرمات السياسية وغيرها فى المجتمع.

---

(٨) لقد صاغ بكارد مصطلح Pyramid Climbers فى كتابه الذى يحمل العنوان ذاته فى ١٩٦٢.

(٩) لن نجد مجالًا يظهر فيه إصرار العاملين على النجاح والتحرك والتنقل مثل مجال البنوك وأعمال المال والتمويل.

(١٠) لقد صاغ «دافيد ريسمان ـ David Riesmann» هذا المصطلح فى الخمسينيات من خلال كتابه «The Lonely Crowd» أى «الجمع الوحيد».

(١١) إن شمالى أمريكا أقل بعدًا عن المسيحية مقارنة بأوروبا، وذلك بناءً على عضوية الناس هناك فى الكنائس والاعتراف العلنى فى المجالات العامة بوجود الله.

(١٢) لقد تنبأ أسد (١٩٣٤) بهذا التطور، فقال بما معناه: إن كثيرًا من المسيحيين لم يعد يقبل أن يمتهن عقله عن طريق التعاليم التى تروجها الكنيسة مثل تجسيد الله، والخطيئة الأصلية، والفداء بالصلب، والثالوث، وتحول الخبز والنبيذ بيد القس إلى جسد ودم المسيح، فيأكل المسيحى ربه، وسينصرفون أفواجًا ليس عن الكنيسة فحسب، بل أيضًا عن دينهم.

هذه هى ملاحظات شخصية المسلم المتخيلة، هذا المسلم الذى يؤمن عن اقتناع، ويمارس الإسلام عن يقين. هذه الملاحظات التى تؤدى إلى إصدار حكم قاطع على الغرب ورفضه، بل هو يرفض رفضًا باتًّا أن يقتدى بهذه الحضارة التى تعانى أزمة وجود، ويتمنى أن يبعد عن وطنه ما يؤدى به إلى هذا المصير. فهو يرى أنه ليس من العقل فى شيء أن يتبع نموذج تطور أثبت فشله، أو أن يسير خلف عملية تنوير، تؤدى فى آخر الأمر إلى لا عقلانية الإلحاد وتوابعه الحتمية.

ألا يؤدى هذا بنا إلى التساؤل: هل شاهد كلٌّ من المسلم المؤمن عن اقتناع ويقين، والمسلم بالميلاد، هل شاهد فعلًا كلٌّ منهما نفس العالم، ووصفه كلٌّ منهما حقًّا؟.

نعم! لم يقم كلٌّ منهما بهذا فحسب، بل إن كلًّا منهما ـ بأحكامهما المتباينة بشدة ـ على حق. فهناك فى الغرب هذه الأيام الكثير مما يدعو إلى الإعجاب والاقتداء به، وهناك أيضًا بالفعل ما يتنافى تمامًا مع الطبيعة الإنسانية، بل ما يجرد الإنسان من إنسانيته، حتى إن كل هذا يمكن أن يؤدى إلى انهيار هذه الحضارة وإنجازاتها إن لم تسرع بتدارك الأمر.

وإذا كان الحق كلُّ الحق مع الزميلين فى حكمهما، فإنهما قد جانبهما الصواب فى رد فعليهما. فيجب عليهما ـ وعلى كل إنسان فى الغرب ـ ألا يسير خلف كل مذهب أو موجة، ولكن يُقَيِّم ويفرز، وأن يستفيد بإنجازات الغرب الحقيقية، وأن يقاوم أمراضه الحضارية. «الانتقاء هو السبيل»، ويتحقق هذا عندما نتخيل أنفسنا مرافقين لشابين مسلمين مُتَخَيَّلَين من الغرب، يقومان برحلة إلى الشرق المسلم؛ لأن هناك الكثير مما يثير الإعجاب، ويحض على الاقتداء به، كما أن هناك الكثير مما ينفر، بل ويثير النقد الشديد.

***